

معاملة جار البيت عند العرب كما ينم عنها الشعر القديم

للدكتور

محمد بن سليمان السديس

الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية

بكلية الآداب

جامعة الملك سعود بالرياض

معاملة العرب لجار البيت

كما يَنْبَغُ عنها الشَّعْرُ الْقَدِيمُ (*)

إن موقف الدِّين الإسلاميِّ الحنيف من معاملة جار البيت لَمَوْقِفٌ فذٌّ، فقد حثَّ النبي صلى الله عليه وسلم على إحسان معاملته ورعي شأنه، وحذَّر من مِغَبَّة الغدر به أو الكيد له، فأكد مُقَسِّمًا بالله ثلاثاً أن (من لا يأمن جاره بوائقه) خاسرٌ لإيمانه، أعزَّ مَطْلُوبٌ وأعلى مُدْخَرٌ. وجبريل عليه السلام ما فتىء يوصي النبي صلى الله عليه وسلم بالجار حتى ظن أنه سيفرض له من تَرْكَةِ جاره نصيباً معلوماً.

ومن أجل التجبُّب إلى الجار، وغرس المودَّة في نفسه لجاره حثَّ عليه السلام على إهداء الطعام والشراب إليه وإن كان (فَرَسِنَ شاةٍ) أو (مَرَقَةً كثيراً ماؤها).

وهو موقف لا يخفى، وما هذا بمقام التحدث بتفصيل عنه. لكن ما ليس بمعلوم لدى غير الخاصة هو الموقف السائد عند العرب الأقدمين تجاه الجيران، أكان شبيهاً بالموقف الإسلاميِّ أم مختلفاً عنه؟

إن الغاية هنا هي السعي للوصول إلى إجابة لهذا السؤال خلال النظر الاستقرائيِّ في مضمون قدر من الشعر القديم (منذ الجاهلية حتى

(*) يتجه اهتمام هذا البحث إلى قدر مما ورد في الشعر العربي مذ ما قبل الإسلام حتى منتصف المائة الثانية بعد الهجرة عن معاملة جار البيت (الجار الجنب). وقولنا (جار البيت) احترازاً من (الجار المستجير) لأنه ليس داخلًا في حمى هذا البحث.

أواخر العصر الأموي) تعرّض لجار البيت، وصوّر المنهج الأمثل السائد عند العرب لمعاملته .

والحق أن دارس ذلك الشعر يُلْفِي الفَخْرَ بِإِكْرَامِ جار البيت، وتجنب مَسِّهِ بما يسوء، والثناء على مكرميه وكافي شَرِّهم عنه، وذمٌّ من يُوهِي حَبْلَ صلته به أو لا يراعي لجواره ذماماً ويستهيّن به، معاني كثيرة الدُّوران على ألسنة الشعراء عبر العصور، وإن كان أقدموهم (شعراء ما قبل الإسلام وصدر الإسلام والعصر الأموي) أكثر ممن تلاهم طرْقاً لها.

ولأن حديث الشعراء عن «حسن معاملة الجار» انعكاس لموقف المجتمع الذي عاشوا فيه، وللرؤية العربية الفاشية قروناً عديدة لهذه المعاملة، فإنه ل يبدو أنها من القيم الاجتماعية والخُلُقِيّة الحسنى التي تمسك بها العرب، بصفة عامة، منذ عهد مبكر من تاريخهم، سواء أكان ذلك ببذل الجهد في إكرامه، أم - في الأقل - بكفّ الأذى عنه.

وباستقراء تلك المادة أُلْفِيَتْ تدور في إطار مضامين معينة توشك ألا تتعدها، وكلها تعلّي نت شأن الجار، وتدعو دعوة مباشرةً قاترةً، وتارةً ضمنيةً إلى حسن رعايته، والإحسان إليه، واللفظ به، وتقدير حرمة حق قدرها. وتلك المضامين، بدورها، تدور في أفلاك ثلاثة :

أ - إكرامه .

ب - كف الأذى عنه .

ج - العفة عن الجارة .

أ - إكرام الجار :

إن تفقّد حال الجار، وقلة السّهو عنه، بتقديم طعامٍ إليه، أو دعوته إلى طعامٍ، وهو، كما لا يخفى، لون من الإكرام المادى، أبرزُ مظهرٍ من مظاهر إكرامه دار على ألسن الشعراء . وما سبب ذلك بعَصِيٍّ على إدراك أحد، ذلك أن الإنسان العربي،

وهو، في أغلب الأحوال، قاطنٌ فلاةٍ، كان عرضة لشظف المعيشة وضيق ذات اليد، إما من جرّاء السنين العجاف اللواتي يأكلن ما (قَدِمَ لَهُنَّ) وهي سنون كثيراً ما أَلَمَّتْ ببلاد العرب أو بناحية أو أخرى من نواحيها، أو من جرّاء السلب والنهب، وشأنه وشأنُ فُشُوهِ في معظم الحقب التاريخية السالفة لا إخاله مختلفاً عليه، أو من جرّاء سببٍ أو آخر خلاف هذين الشائنين.

والمال الذي في أيدي من يملكون شيئاً ليس ذهباً ولا فضةً، بل هو، في الأغلب الأعم، نَعَمٌ أو غَنَمٌ، وهما ثروة ليس اضمحلالها يبطئ. لذلك أدرك الإنسان في هذا الوسط الجغرافي الاجتماعي احتياجه إلى أخيه، وشعر الجار بواجبه تجاه جاره. وعدّ المجتمع بأسره هذا الأمر من المثل الخُلُقِيَّةِ الخَلِيقَةِ بالصُّون والإجلال الوافر، فمما افتخر به لبيد بن ربيعة، مثلاً، أن قومه يُترعون الجفان الضخام في الشتاء حين يكون التماس لقمة العيش من العُسر بَمَكَانٍ، يُترعونها من لحم إبلهم السِّمَانِ التي تُتَجَّتْ في الربيع - وهو أَسْمَنُ لها وأطيب للحومها - ويطعمون جيرانهم:

وَإِذَا شَتَوْا عَادَتْ عَلَى جِيرَانِهِمْ رُجْحٌ تُوفِّيهِمَا مَرَابِعُ كَوْمٍ^(١)

وبأنه هويشترك في المضاربة بالقِداح من أجل أن يذبحَ أَسْمَنَ إِبِلِهِ وأعزّها عليه من أجل إهداء لحمها لجيرانه في الشتاء حين تَشْتَدُّ الحاجة إلى الطعام:

وَجَزُورٌ أَيْسَارٌ دَعَوْتُ لِحَفِيفِهَا بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا
أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفِلٍ بَذَلْتُ لَجِيرَانِ الشِّتَاءِ لِحَامُهَا^(٢)

ولبيد حين رفع من شأن إطعام الجيران، وإهداء اللحم إليهم في الشتاء، إنما

(١) شرح ديوانه، تحقيق إحسان عباس (طبعة ثانية مصورة: الكويت، وزارة الإعلام [١٤٠٤هـ] / ١٩٨٤م)، ١٣٦. رُجْحٌ: جفانٌ عظامٌ يُقال: تُوفِّيها: تملأها. مَرَابِعُ: ج. مَرَبَعٍ، أى معها فصيل تُنَجُّ في أول الصيف (رُبْعٌ) فهو أبداً ضعيف. كَوْمٌ: ج. كَوْماء وهي العظيمة السنام. عن المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه. الأيسار: المضاربون بالقِداح. دعوت لِحَفِيفِهَا: سعت لذبحها. مغالق: قِداح؛ لانه يَغْلَقُ بها الرهن، وَغَلَقَهُ ضِدُّ فَكَّهِ. العاقر: التي لم تلد، خَصَّهَا لِسَمْنِهَا. مُطْفِلٌ: أُمٌ طِفْلٌ، لأنها أغلى عليه. لِحَامُهَا: لحمها. عن المصدر نفسه، الموضع نفسه.

عَبَّرَ عَنْ مَعْنَى شِعْرِيْ مَأْثُورٌ، فِي الشِّتَاءِ حِينَ يَشْتَدُّ الْبَرْدُ يَتَعَسَّرُ الْبَحْثُ عَنِ الْقُوَّةِ، وَتَشْحُ الْأَرْضُ بِشِمَارَتِهَا وَيَشْتَدُّ الْعُوزُ إِلَى مَا يَذْهَبُ بِغَائِلَتِي السَّغْبِ وَالْقُرَى^(٣)، فَقَدُورُ قَوْمِ الْفَرَزْدَقِ - زَعَمَ - تَضَمَّنَ لِحِجْرَانِهِمْ قُوَّتَهُمْ أَوْ أَنَّ اسْتِدَادَ هُبُوبِ الرِّيحِ الْبَارِدَاتِ (أَيِ فِي الشِّتَاءِ) :

وَقَدْ عَلِمَ الْحِجْرَانُ أَنَّ قُدُورَنَا ضَوَامِنُ لِلْأَرْزَاقِ وَالرَّيْحِ زَفَزُ^(٤)
وذو الرمة يمدح بلال بن أبي بردة أمير البصرة وقاضيتها فينعتة بأنه (يُبَارِي) رِيحَ الشَّمَالِ الْقُرَّةَ فِي سَمَاحَتِهِ، فَيَصْنَعُ، إِذَا حُلَّ الشِّتَاءُ، وَحِينَ يَجِيءُ اللَّيْلُ، الطَّعَامَ لِحِجْرَانِهِ الَّذِينَ يَلْتَفُّونَ هُمْ وَبَنُوهُمْ حَوْلَ جِفَانِهِ الْمُتَرَعَّةِ فَتَرَى الصِّبْيَانَ يَخْبُطُونَ تِلْكَ الْجِفَانَ الشَّيْهَاتِ بِالْجَوَابِي خَبْطًا شَدِيدًا كَخَبْطِ أَوْلَادِ الْإِبِلِ الْبَرَكِ حِينَ وُرُودِهَا، لَشِدَّةِ اشْتِهَائِهِمُ الطَّعَامَ :

إِذَا أَمْسَتِ الشُّعْرَى الْعَبُورُ كَأَنَّهَا مَهَاءٌ عَلَتْ مِنْ أَرْضِ يَبْرِينَ رَابِيَا
فَمَا مَرَّتْ جِجْرَانِ إِلَّا جَفَانُكُمْ تَبَارُونَ أَنْتُمْ وَالرَّيَاحُ تَبَارِيَا
لَهُنَّ إِذَا أَصْبَحْنَ مِنْهُنَّ أَحَقَّةٌ وَحِينَ تَرَوْنَ اللَّيْلَ أَقْبَلَ جَائِيَا
رَجَالٌ تَرَى أَبْنَاءَهُمْ يَخْبُطُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ خَبْطَ الرَّبَاعِ الْجَوَابِيَا^(٥)

وَيَمْدَحُ الْحَطِيطَةُ بَنِي قَرِيْعٍ قَوْمِ بَغِيضِ بْنِ شَمَّاسٍ أَنَّ الْبَرْدَ وَمَا يَصْحَبُهُ مِنْ عُوزٍ يَتَجَنَّبُ جَارَهُمْ لِأَنَّهُمْ يُوَوُّونَهُ وَيُدْفِقُونَهُ وَيُطْعِمُونَهُ :

(٣) وَلَا ضَيْرَ مِنْ تَذْكِيرِ الْقَارِيءِ هُنَا بَيْتِ طَرَفَةِ الْأَشْهُرِ الَّذِي تَبَاهِي فِيهِ بِدَعْوَتِهِ وَقَوْمِهِ النَّاسَ إِلَى الطَّعَامِ دَعْوَةً (جَفَلَى) نَعْمَ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهَا فَلَا (يَنْتَقِرُونَ) مَدْعُوِيَهُمْ انْتِقَارًا، أَيْ يَدْعُوْنَهُمُ الدَّعْوَةَ (النَّقْرَى) الَّتِي يُخَصُّ فِيهَا أَفْرَادًا بِأَعْيَانِهِمْ دُونَ سَوَاهِمِ.

(٤) دِيْوَانُهُ، (بَيْرُوتُ: دَارُ صَادِرٍ، دَارُ بَيْرُوتِ، ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م)، ٢/٢٨. زَفَزَ: شَدِيدَةُ الْهَيْبِ.

(٥) دِيْوَانُهُ، تَحْقِيقُ عَبْدِ الْقُدُوسِ أَبِي صَالِحٍ (دِمَشْقُ: مَجْمَعُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ١٣٩٢هـ-١٩٧٣م) ٢/١٣٢٣ وَالتِّي تَلِيهَا. الشُّعْرَى الْعَبُورُ: نَجْمٌ يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ الشِّتَاءِ. وَهَنَالِكَ شِعْرِيْ أُخْرَى تَسْمَى (الْعُمَيْصَاءُ) لِأَنَّهَا لَا تَضِيءُ إِضَاءَةَ الشُّعْرَى الْعَبُورِ. أَحَقَّةٌ: جَدِيفٌ، أَيْ قَوْمٌ اسْتَدَارُوا حَوْلَهَا. الرَّبَاعُ: جَرُبٌ، وَهُوَ وَلَدُ النَّاقَةِ الْمَتْنَجِ فِي الرَّبِيعِ.

إِذَا نَزَلَ الشِّتَاءُ بِجَارِ قَوْمٍ تَجَنَّبَ جَارَ بَيْتِهِمُ الشِّتَاءُ^(٦)

وأعشى تغلب يدعي أن من يرى معاملة قومه لجارهم يحسب، لشدة إكرامهم له، أن لهذا الجار عليهم يداً أو صنيعاً فهم يكرمونه عرفاناً بجميله :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا حَتَّى تَرَانَا كَأَنَّ لِجَارِنَا فَضْلاً عَلَيْنَا^(٧)
وقومٌ تميم بن مقبل كثير الإكرام للجيران، يُهَيِّنُونَ إِبِلَهُمْ فَيَنْحَرُونَهَا لِإِطْعَامِهِ،
سواءً ما كان منها سميناً وما كان غير سمين :

* مَكَارِيمُ لِلْجِيرَانِ، بَادِ هَوَانُنَا ذَوَاتِ الذُّرَى مِنْهَا سَمِينٌ وَأَعَجَفُ^(٨)
* فِي دَارِ حَيٍّ يُهَيِّنُونَ اللَّحَامَ وَهُمْ لِلْجَارِ وَالضَّيْفِ يَغْشَاهُمْ مَكَارِيمُ^(٩)

وهذا المعنى يجتهد الشعر القديم في إبرازه بأساليب وصور متنوعة تدل، كما قلنا، على أن (إكرام الجار) من القيم الاجتماعية الراسية الأصول لدى العرب. فالإبل تخصص لأداء الحقوق والحملات الواجبة على صاحبها، ولإطعام جار البيت من لحمها :

وَلَكِنَّمَا صَادَفَتْ ذَوْدًا مَنِحَةً حُسْنٌ لِحَقٍّ أَوْ لِجَارٍ مُجَاوِرٍ^(١٠)
والنار تُشْعَلُ عَلَى نَشْرِ مِنَ الْأَرْضِ لِيَرَاهَا فَيَمْنُ يَرَاهَا إِنْسَانٌ سَاغِبٌ صِفَرُ الْيَدِ مِنْ

(٦) ديوانه بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني، تحقيق نعمان أمين طه، (القاهرة: شركة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م)، ١٠٢.

(٧) كتاب الوحشيات، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق عبدالعزيز الميمني، (القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٠هـ - [١٩٧٠م]، ١٠٩.

(٨) ديوانه، تحقيق عزة حسن (دمشق: وزارة الثقافة، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م)، ١٩٨. ذوات الذرى: ذوات الأنثى، أى الإبل السمان.

(٩) نفسه، ٢٧٥، يُهَيِّنُونَ اللَّحَامَ: يذبلون اللحم للمحتاجين.

(١٠) لجيهاء أو جيهاء الأشجعي (أموي)، ينظر الحماسة الشجرية، لهبة الله بن علي العلوي، تحقيق عبدالمعين الملوح وأسماء الحمصي، (دمشق: وزارة الثقافة، ١٣٩٠هـ - [١٩٧٠م]، ٩٦١/٢.

الزاد. فكيف يليق بالمرء الشهم النبيل أن يُخْفِيَ نَارَهُ؟ كيف يخفيها من ابن سبيلٍ
يَعُوْزُهُ المَطْعَمُ والمَأْوَى والإيناسُ؟ أو من جارٍ منتظرٍ إشعالها ليهفُوَ إليها راجياً ما
رجاه الضيف. والقِدْرُ تُنْصَبُ ليراهَا من يريد الطعام. فلا خير في قِدْرٍ تُحْجَبُ عن
جارٍ أو عن مُتَصَوِّرٍ جوعاً في جوف ليلٍ:

أَيَا مُوقِدِّي نَارِي ارفَعَاها لَعَلَّها تُشَبُّ لِمُقَوِّ آخِرِ اللَّيْلِ مُقْفِر
أَمِنْ رَاكِبٍ أَمْسَى بِظَهْرِ تَنَوِّفَةٍ أَوَارِيكَ؟ أَمْ مِنْ جَارِيِ الْمُتَنَظِّرِ؟
وَلَا قِدْرٌ دُونَ الْجَارِ إِلَّا ذَمِيمَةٌ وَهَذَا الْمُقَاسِي لَيْلَةً ذَاتَ مُنْكَرٍ^(١١)

بل إن من الشعراء من افتخر بأن ناره هي نار جاره يأتي إليها جاره متى شاء،
وبأن قِدرَهُ يذهب بها إليه ليغترف مما فيها من طعام قبل صاحبها:

نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تَنْزِلُ الْقِدْرُ^(١٢)
وإن أنزلت من على أثافيها قبل أن يحضُرَ الجارُ قُسِمَ ما طبخ فيها من زاد بين
أهلها وبين جارهم قسمةً عدلاً: لَهُمْ مَقْدَحٌ (مغرفة) وللجارِ مِثْلُهُ:

إِذَا قِدْرُنَا يَوْمًا عَنِ الْجَارِ أَنْزَلَتْ لَنَا مَقْدَحٌ مِنْهَا وَلِلْجَارِ مَقْدَحُ^(١٣)

والرجل العربي الجاهلي يحب الثناء (وحبُّ الثناء طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ) ويخشى

(١١) للمعير السلولي. ينظر الأغاني، لعلي بن الحسين الأصبهاني، (القاهرة: دار الكتب، ١٣٨٣هـ -

١٩٦٣م)، ٦٦/١٣. مُقَوِّ: المُقَوِّ: الجائع. المُقْفِر: من لا طعام عنده. الْمُتَنَظِّرُ: الْمُتَنَظِّرُ الطعام يُهْدَى
إليه منى. الْمُقَاسِي لَيْلَةً ذَاتَ مُنْكَرٍ: الذي يُقَاسِي لَيْلَةً سَيِّئَةً مُنْكَرَةً لم يذق فيها طعاماً.

(١٢) لمسكين الدارمي، ينظر ديوانه، تحقيق عبدالله الجبوري و خليل العطية، (بغداد: ؟، ١٣٨٩هـ -

١٩٧٠م)، ٤٥؛ والأغاني، ٢٠/٢١٤، وديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره، تحقيق عادل سليمان

جمال، (القاهرة: ؟، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)، ٣١٣ وحاشيتها، وأمالى المرتضى لعلي بن الحسين

العلوي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، (القاهرة: شركة مصطفى الباي الحلبي ١٣٧٣هـ -

[١٩٥٤م]، ١/٤٧٤.

(١٣) لجرير. ينظر ديوانه، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان أمين طه، (القاهرة: دار المعارف [١٣٨٩هـ -

١٩٦٩م)، ٢/١٠٢٤؛ واللسان (ق دح).

الذَّمَّ، ولهذا ربما امتنع عن أكل طعامه وحده، بل ينتظر جاراً أو يلتمس ضيفاً ليؤاكله مخافة أن يُذَمَّ بعد موته بالاستثثار باليزاد دون المحتاجين إليه :

إذا ما صَنَعْتَ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلاً فَإِنِّي غَيْرُ آكِلِهِ وَحَدِي أَخاً طَارِقاً، أَوْ جَارَ بَيْتٍ، فَإِنَّنِي أَخَافُ مَذَمَّاتِ الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي^(١٤) وإذا كان من ذَابَ لِثَامَ النَّاسِ وَمُمْسِكِي الْمَالِ مِنْهُمْ أَنْ يَضِيقُوا ذَرْعاً بِجِيرَانِهِمْ، وَأَنْ يَسْعَوْا لِلتَّخْلُصِ مِنْ تَبَعَاتِ حُقُوقِهِمْ بِالْأَعْدَارِ الْوَاهِيَاتِ، فَإِنَّ الْكِرَامَ يَتَلَقَّوْنَ مِنْ يَبْغِي مُجَاوَرَتَهُمْ بِأَذْرَعٍ مَفْتُوحَاتٍ، وَيُخْفُونَ مَا قَدْ يَكُونُونَ يَقَاسُونَهُ مِنْ عَوْرِ أَوْ شَظْفِ عَيْشٍ، وَلَا يَشْعُرُونَهُ بِعَدَمِ اتِّسَاعِ بَيْتِهِمْ لَهُ :

* بَلْ لَا نَقُولُ إِذَا تَبَوَّأَ جِيرَةً إِنَّ الْمَحِلَّةَ شِعْبُهَا مَكْدُودٌ إِذْ بَعْضُهُمْ يَحْمِي مَرَايِدَ بَيْتِهِ عَنْ جَارِهِ، وَسَبِيلُنَا مَوْزُودٌ^(١٥) * وَلَا أَقُولُ لِجَارِ الْبَيْتِ يَتَّبِعُنِي نَفْسٌ مَحِلَّكَ إِنَّ الْجَوَّ مَحْلُولٌ^(١٦)

أما ذو النفسِ السَّخِيَّةِ وَالسَّجِيَّةِ السَّمْحَةِ حَاتِمُ الطَّائِي، فقد بلغ من شدة إكرامه لجاره أن طلب من زوجته، إذا كان لديها شيئا أن تُخَيِّرَ جَارَهُمَا بَيْنَهُمَا لِيُخْتَارَ مِنْهُمَا مَا رَاقَ لَهُ أَوَّلًا، فإن لم يك عندها خلا شيئا واحداً فالجار به أولى إن كان مُعَوِّزاً. وذلك، على أية حال، ليس بمستغرب ممن هو مضرب الأمثال في السماحة والجود :

(١٤) لقيس بن عاصم المنقري. ينظر ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي، ٣١٢ وحاشيتها حيث وردت ضمن ما نسب لحاتم وليس له. وقد أشار المحقق إلى أن الأستاذ محمود شاكر حقق نسبتها لقيس.

(١٥) المفضليات، للمفضل بن محمد الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م)، ٣٥٦، والبيتان لمعاوية بن جعفر بن كلاب.

ان المَحِلَّةَ شِعْبُهَا مَكْدُودٌ: شِعْبُهَا ضَيْقٌ، وذلك كناية عن الحاجة. أراد لا نعتذر لأضيافنا عن إكرامهم بما نحن فيه من ضيق وعسر. مرايِدَ بَيْتِهِ: السُّبُلُ المؤدية إليه، ج. مَرَصِدٌ وَمَرَصَادٌ. ينظر مثلاً اللسان (ر ص د).

(١٦) للطفيل الغنوي. ينظر ديوانه، تحقيق ف، كرنكو، (لندن: لوزاك كُمني، [١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م]، ٣١؛ وديوانه، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، (بيروت: دار الكتاب الجديد [١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م]، ٥٧.

إذا كَانَ لي شَيْثَانٌ يَا أُمَّ مَالِكٍ فَإِنَّ لِحَارِي مِنْهُمَا مَا تَخِيرَا
وفى واحدٍ، إِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ وَاحِدٍ، أَرَاهُ لَهُ أَهْلًا إِذَا كَانَ مُقْتِرًا^(١٧)

وجار الأجوادِ يطردُ الأجوادُ عنه الجوعَ طَرْدًا فلا يصلُ إليه، فَيَرى وقد بَدَتْ عليه
آثَارُ الشَّبَعِ والنِّعْمَةِ والعِيشِ الرغدِ حتى لَكَأَنَّهُ غُضُنٌ لَدُنْ نَضِرٍ، وليس يضره ألا
يملك ريشاً ولا أثنأً، فما دامت أبياتهم تكتنف بيته فإن له قسطاً من أموالهم كافياً :

* والشَّافِعُونَ الْجُوعَ عَنْ جَارِهِمْ حَتَّى يَرَى كَالْغُضُنِ النَّاضِرِ^(١٨)
* وما على جَارِهِمْ أَلَّا يَكُونَ لَهُ إِذَا تَكَنَّفَهُ أَبْيَاتُهُمْ نَشْبُ^(١٩)

إنهم كالربيع يعيش مجاورهم بينهم فى رَفَاعَةِ عِيشٍ، ولا يكاد ينقطع جُودُهُمْ
عنه، بل هم يجتمعون ويتأهبون لإطعام جَارِهِمِ والمُتَشَوِّفِ لِنَارِهِمْ لِيَقْصِدَهَا :

* وَهُمْ رَبِيعٌ لِلْمُجَاوِرِ فِيهِمْ وَالْمُرْمَلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا^(٢٠)
* بَحْرٌ فَلَيْسَ يُغْبُ جَا رَأً مِنْهُ سَيْبٌ أَوْ مَنَادَحٌ^(٢١)
* مَرَايِدُ لِلْمَوْلَى، مَحَاشِيدُ لِلْقَرَى عَلَى الْجَارِ وَالْمُسْتَأْنِسِ الْمُتَنَوِّرِ^(٢٢)

(١٧) ديوان شعره، ٢٦٩.

(١٨) للأعشى. ينظر ديوانه، تحقيق وشرح م. محمد حسين، (القاهرة: مكتبة الآداب، [١٣٧٠هـ] - ١٩٥٠م)،
١٤٥، الشافعون: الدافعون.

(١٩) لطريح بن إسماعيل الثقفي. ينظر مثلاً الأغاني، ٣١٢/٤؛ و«شعراء أمويون»، دراسة وتحقيق نوري
حمودي القيسي، (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)، ٢٩٥/٣؛ وشعراء تقيف في
العصر الأموي جمع وتحقيق عيضة بن عبدالغفور الصواط، (الطائف: نادى الطائف الأدبي، د. ت)،
٢٢٤. نشب: النشب: المال.

(٢٠) اللبيد. ينظر شرح ديوانه، ٣٢١.

(٢١) لحسان رضي الله عنه يرثي حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه. ينظر ديوانه، تحقيق وليد عرفات، (بيروت:
دار صادر، [١٣٩٠هـ] - ١٩٧٠م)، ٤٥١/١. سَيْبٌ: عطاء.

(٢٢) لعبيد السلمي. ينظر مثلاً «قصائد جاهلية نادرة» ليحيى الجبورى (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ -
١٩٨٢م)، ١٣٢. مرافيد: جد مرقاد: كثير الرُقْد، كثير العطاء والعون؛ محاشيد: جد مَحْشَاد: كثير
الحشد، أى الجمع والإعداد؛ المستأنس: الناظر الباحث عن الإنس (الناس)، المُتَنَوِّر: المتبصر للنار من

والرجل النبيل ذو المروءة والشهامة يشتد شدة من أن يستسيع المرء القوت وهو على علم بما يقاسيه جاره من سغب وجهد :

وكيف يُسِيغُ الْمَرْءُ زَاداً وَجَارُهُ خَفِيفُ الْمِعْيِ بِأَدْيِ الْخَصَاصَةِ وَالْجَهْدِ؟^(٢٣)

أما التَّغْيِيرُ بعدم إكرام الجار والذَّمِّ بذلك فمعنى لا يكاد يغيب عن ذهن الشاعر العربي القديم، فقد أكثر الشعراء من عدل مهجوبيهم بعدم إكرامهم جيرانهم، وتقصيرهم في حقهم، وتلك، لا ريب، مذمة أليمة الوقع على النفس، فكفى المرء لوماً أن يُنْعَتَ حقاً بأنه يملأ بطنه من الطعام إلى أن يَشْمَ، وجارُهُ يُعَانِي تباريح الجوع. ومن أولئك الْمُعَيَّرِينَ حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه إذ وصف قوماً يُدْعَوْنَ بني أَسْلَمَ بأنهم دنيئون يعلمون أن جارهم سيلقى نجه جوعاً في بيته فلا يُحَرِّكُونَ لِإِنْقَاذِهِ سَاكِنًا. كما ذم قوماً آخرين بأنهم، إلى جنبهم وخرقهم وخلو أيديهم من السلاح في الهيجاء، ممتلئو البطون في السِّلَمِ وجارهم ساعبٌ لا غِبُّ :

* قَدْ عَلِمْتَ أَسْلَمَ الْأَنْدَالَ أَنَّ لَهُمْ جَاراً سَيَقْتُلُهُ فِي دَارِهِ الْجُوعُ^(٢٤)
خُرْقٌ مَعَاذِلُ إِذَا جَدَّ الْوَعَى بَطْنٌ إِذَا مَا جَارُهُمْ لَمْ يَشْبَعِ^(٢٥)

ومنهم الفرزدق، فقد أَلْصَقَ بِأَنَاسٍ يُدْعَوْنَ بني رُبَيْعٍ بن الحارث مَنَاقِصَ عدة منها أن أَوَائِلَهُمْ قَدْ قَصُرَ بَاعُهُمْ عَنْ فَعَالِ الْكَرَامِ، ومن ثم فهم من باب أولى، وأنهم كثيرون الْجَلْبَةِ وَاللَّجَبِ وَالصَّخْبِ كأنهم تُيُوسُ شديدة الصياح، وأن أَوَائِلَهُمْ تَخْلُو من

يعيد، المتطلع إلى أن يرى ناراً فيقصدها. وينظر مثلاً الصحاح لإسماعيل ابن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، (القاهرة: ٩، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م)، ٨٣٩/٢.

(٢٣) لقيس بن عاصم المنقري. ينظر ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي، الموضع نفسه. خفيف المِعى: أعماءه خفيفة لقله ما فيها من الطعام.

(٢٤) ديوانه، ١٧٦/١.

(٢٥) نفسه، ٢٦٣/١. خُرْقٌ: جد أخرق وهو الذي لا يُحْسِنُ الْعَمَلَ (لا يتقن ما يعمله)؛ معاذيل: جد مِغْزَالٍ:

الذين لا سلاح أو لا رماح معهم. ومثلها غَزْلٌ وَغَزْلٌ وَأَغْزَالٌ. ينظر مثلاً الصحاح، ١٧٦٤/٥، بَطْنٌ: جد بَطْنٌ وهو (النَّهْمُ الذي لا يَهْمُهُ إِلَّا بَطْنُهُ). عن المصدر نفسه، ٢٠٨٠/٥.

الطعام المقدم للأضياف في الشتاء، وأن جارههم يشتكي عَضَّ الجوع لِشَحِهِمْ. كما ذمُّ بني مِنقَر بأنه، على عِظَمِ قدروهم وقصاعهم التي يؤثرون أنفسهم بما تستوعب من طعام، فإنَّ جارههم حين يكون في أشدَّ الحاجة للزاد، وذلك في زمن الجذب والسنة حين تكون البروق كلها خُلْباً (لا يتبعها مطر)، أبعدُ ما يكون عن أن يُفاجأ مُفاجأةً مُفرحةً بدعوته إلى الانضمام إليهم للتناول من تلك الآنية :

* أترجو رُبَّيَّع أن تجيء صغارها بخيرٍ وقد أَعشى رُبَّيَّعاً كِبَارُهَا
عُتْلُون صَحَابُو العَشِيِّ كَأَنَّهُمْ جداء من المِعْزَى شَدِيدٌ يِعَارُهَا
إذا النُجْمُ وافي مَغْرِبِ الشَّمْسِ حَارَدَتْ مَقَارِي عُبَيْدٍ واشتكى القَدَرُ جَارُهَا^(٢٦)
* عِظَامِ المَقَارِي يَأْمَنُ الجَارُ فَجَعَهَا إذا ما الشُّرْيَا أَخْلَفَتْهَا بَرُوقُهَا^(٢٧)

وممن غيَّرَ أفسى تعبير وأنكاه بعدم إكرام الجيران أبو بصير الأعشى، حتى روي أن المُعَيَّرَ وهو علقمة بن علاثة لم يتمالك نفسه من الإجهاش بالبكاء من شدة وقع الصورة الهجائية على نفسه ثم قال، والمرارة تعقد لسانه، مستنكرا: «قَاتَلَهُ اللَّهُ أَنَحْنُ كَذَلِكَ؟!». فقد وصفه بأنه وقومه يبيتون الليل في مقامهم الشتوي، وقد اكتظت بالطعام بطونهم، في حين لا تقوى جاراتهم الضعيفات على إغماض آماقهن من فرط ما يعانين من عضات ناب السَّغْب فيظللن يُقَلِّبن الطَّرْفَ وَجَلَاتٍ مُضْطَرِبَاتٍ نحو الكواكب التي ما أن يأفلَ أحدها حتى يبرز الآخر :

تَبَيُّتُونَ فِي المَشْتَى مِلَاءً بَطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَرَّتِي يَتَنَّ خَمَائِصَا
يُرَاقِبْنَ مِنْ جُوعٍ خِلَالَ مَخَافَةٍ نُجُومَ السَّمَاءِ الطَّالِعَاتِ الشَّوَاخِصَا^(٢٨)

(٢٦) ديوانه، ٢٧٢/١. اليعازر: صوت الثبوس والمُعْزَى الشديد. المَقَارِي: القُدُور والقِصَاع، ج. مِقْرَاء. حَارَدَتْ:

قَلَّ ما فيها من الطعام، وأصله في الناقة التي انقطع لبنها أو قَلَّ، واستعاره الشاعر لِيُخْلُو القَدَرُ من الطعام.

اشتكى القَدَرُ جَارُهَا: اشتكى الجوع لدى أصحابها لعدم وصول شيء مما فيها إليه.

(٢٧) نفسه، ٣٥/٢. يريد أن قصاعهم كِبَارٌ لجشعهم لا لإطعام جيرانهم. ومعنى عجز البيت: إذا أخلف المطر

وأجذبت الأرض. عن المصدر نفسه، الموضع نفسه (حاشية).

(٢٨) البيتان في ديوانه، ١٤٩. وينظر «الهجاء والهجاؤون في العصر الجاهلي» لمحمد محمد حسين، (القاهرة:

مكتبة الآداب [١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م]، ٩٢ وما بعدها.

وهذا التصوير، على شناعة فحواه، مُفَعَّمٌ بالحسن الفَنِّيِّ، ومُوحٍ بِقُدْرَةِ قَائِلِهِ الفَائِقَةِ على طَعْنِ مذمومه في صميم مقاتله. فأية أثره تداني الاستثثار بالزاد الوافر والجيران جوعى؟! وتتضاعف شناعة هذه الممارسة إذا كان أولئك الجيرة نسوة ضعافاً عاجزاتٍ عن الاحتيال لأنفسهن والتحرك في أجواف الليالي الباردة لكسب ما يُبقي الروح في عَصَبِ أجسادِهِنَّ الضاويات وعروقها. ولهذا تَرَكَ هذا التصوير (الكاريكاتوري) المغالي أثره في شعراء آخرين حاولوا محاكاته، وربما دَنَوْا منه قليلاً أو كثيراً وإن لم يبلغوه فما بالك بأن يتجاوزوه. ومن أولاء مُزَرَّدِ بن ضرار الذبياني، أخو الشماخ بن ضرار، في هجائه لرجل يدعى زُرْعَةُ بْنُ ثُوبِ الغطفاني، إذ وصفه بالانشغال بِشُرْبِ لبن النياقِ عن جاراته اللاتي أضربَ بهنَّ الهزال، (أى الانغماس في النعمة والسهو عن مقاساة الآخر) :

أُزْرِعَ بَنَ ثُوبٍ إِنَّ جَارَاتِ بَيْتِكُمْ هُزِلْنَ، وَالْهَاكَ ارْتِغَاءُ الرَّغَائِدِ^(٢٩)

قال أبو زكريا التبريزي: «قوله: جارات بيتكم: تشنيع، لأن ظلم المتحرم بالجوار أقطع في المقال من ظلم من لا حرمة له، ثم جعله مُرْتِغَاءً [والارتغاء: أخذ رغوۃ اللبن وشربها]، لَمَّا وَسَّعَ على نفسه من ألبان الإبل المسلوبة بعد أن كان ضيق العيش»^(٣٠) ثم قال مبيناً مراد الشاعر من قوله (والهاك ارتغاء الرغائد): «أى ألهاكم الخصب عن جاراتكم. وهذا أشدُّ لهجائه لهم أن يكونوا اشتغلوا عن جاراتهم وهم مخصبون»^(٣١). وأضاف الأستاذ علي البجاوى محقق شرح المفضليات رحمه الله: «فهو يقول له ضيعتم جاراتكم وشبعتم دونهن، واللائمة في تضييع المرأة أعظم وأشدَّ»^(٣٢)

(٢٩) المفضليات، ٧٧؛ وشرحها لأبي زكريا يحيى بن علي التبريزي (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٣٩٧هـ -

١٩٧٧م)، ٢٥٤/١. الرغائد: جرغيدة: الناقة الكثيرة اللبن؛ وأرتغاؤها شرب رغوۃ حليبها.

(٣٠) شرح المفضليات، الموضع نفسه.

(٣١) المصدر نفسه، ٢٥٥/١.

(٣٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه (حاشية).

إن المرء الكريم ليوجس في قرارة نفسه خزيًا أن يتلبس بهذا الحال، فيراه الناس يأكل حتى الامتلاء والسمن بينما جاراته ساغبات هزيلات :

وإني لأخزى أن تُرى بي بطننة وجارات بيئي طاويات ونحف^(٣٣)
ومن الناحية الأخرى كان إكرام الجارة من المثل الكريمات التي تمدح بها
المفتخرون من الشعراء، ووصف بها المادحون منهم ممدوحهم ومرثيهم فليبد
رثي أخاه (أربد) بأنه إذا نحر جزوراً فهو، لا محالة، مُهد لجارته من أطايب لحمه،
(وكانوا يعدُّون السنام من ذلك). وهي إن أقامت بجواره، فلها منه الإكرام والصون،
ولذلك فهي إن ارتحلت ستذكره ذكراً حسناً وتثني عليه :

وَجَارَتُهُ إِذَا حَلَّتْ إِلَيْهِ لَهَا نَفْلٌ وَحَظٌّ فِي السَّنَامِ
فَإِنْ تَقَعْدُ فَمُكْرَمَةٌ حَصَانٌ وَإِنْ تَظْعُنْ فَمُحْسِنَةٌ الْكَلَامِ^(٣٤)
وينو لأبي بن شماس القرعيني يزعم الحطيئة أنهم يتعاهدون جارتهم فلا تجد
نفسها مكرمة على ذبح نعتجتها الوحيدة، أو - على قول آخر - لا تأكل لحمها بلا
خبز إذ يتعاهدونها به :

وَمَا تَتَّامُ جَارَهُ آلَ لَإِيٍّ وَلَكِنْ يَضْمَنُونَ لَهَا قِرَاهَا^(٣٥)
وجارة قوم منظور بن زبَّان الفراري تزورها هديتهم بعد مُضي جزءٍ من الليل فهم
- كما قال شاعر يدعى حُفَيز العَبَّسي - في رواية، أو جرير في أخرى - لا يغفلون
عنها :

تَزُورُ جَارَتَهُمْ وَهَنَاءُ هَدِيَّتُهُمْ وَمَا فَتَاهُمْ لَهَا وَهَنَاءُ بَزْوَارِ^(٣٦)

(٣٣) لحاتم الطائي. ينظر مثلاً ديوان شعره، ٢٢٣، والحماسة الشجرية، ٥٢/١. ويعدّه:

وإني لأغشي أبعد الحي جفني إذا زعزع الأطناب نكباء حرجف

(٣٤) شرح ديوانه، ٢٠٤.

(٣٥) ديوانه، ١١٧.

(٣٦) ينظر مثلاً، جمهرة نسب قريش وأخبارها، للزبير بن بكار، تحقيق محمود شاكر، (القاهرة: مكتبة دار

العروبة، ١٣٨١هـ [١٩٦٢م]، ٢٥، وديوان جرير، ٧١٥/٢.

والشَنْفَرَى يمدح امرأته بأنها تتعهد جارتها بعد أن يَغْفُوَ الناس فتهدى إليها اللبن حين يندر الإهداء لِمَا أَلَمَ بالناس من شَطَفٍ وَمَحَلٍّ ذَهَبَ بِالْأَلْبَانِ وَأَفْنَى الْأَقْوَاتِ :

تَبَيَّتْ بُعَيْدَ النَّوْمِ تُهْدِي غُبُوقَهَا لِحَارَتِهَا إِذَا الْهَدِيَّةُ قَلَّتْ^(٣٧)
ب - كَفَّ الْأَذَى عَنِ الْجَارِ :

ورد أن النبي صَلَّى الله عليه وسلم قال مرَّةً: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ! ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ! ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ !» قيل : ومن يارسول الله؟ قال : «الذى لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»^(٣٨). فليس الذى يخشى جاره أذاه - والعياذ بالله - مِمَّنْ أَنْعَمَ اللَّهُ سبحانه عليهم بنعمة الإيمان العظمى التى تزرع من أُسْبِغَتْ عليه عن الإساءة إلى من يجاوره .

وفي الشعر العربي فخر كثير بكفِّ الأذى عن الجار، ومدح كثيرٍ لكأفِّي شَرِّهِمْ عن مجاورهم، كما أن فيه تنقُصاً واستصغاراً لمن لا يأمن جيرانهم كيدهم ومكرهم، فأوس بن حجر ينفي أن يَأْتِيَ جيرانه منه في الليل ذُبَابٌ يُؤَرِّقُهُمْ، وذبابُ أوسٍ غير خافٍ أنه ذُبَابٌ مجازيٌّ، أى الإيذاء الذى يُطِيرُ هدوءَ البال فالنَّوْمُ عن مُؤَرِّقِهِمْ؛ وزهير يؤكد كَفُّهُ الأذى عن جيرانه؛ وجار عترة لا يضيق ذرعاً بجواره؛ وهذبة بن الخشرم العذري لا يخشى أحد شره ولا يخشى جاره غدره؛ والعرجي لا يغدو إليه جاره يشتكي أذاه مادام حيًّا لأنه لا يؤذيه ولا يغتابه أبداً :

* وَلَيْسَ بِطَارِقِ الْجِيرَانِ مَنِّي ذَبَابٌ لَا يُنِيمُ وَلَا يَنَامُ^(٣٩)
* وَكَفَى عَنِ أَذَى الْجِيرَانِ نَفْسِي وَإِعْلَانِي لِمَنْ يَبْغِي عِلَانِي^(٤٠)

(٣٧) المفضليات، ١٠٩.

(٣٨) رواه البخارى في صحيحه، تحقيق مصطفى أديب البغا (دمشق: بيروت: دار ابن كثير واليامة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، ٥/٢٢٤٠.

(٣٩) ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر دار بيروت، [١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م]، ١١٥.

(٤٠) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، (القاهرة: نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م)، ٣٤٩.

- * ولا أَعُوذُ مُهْرِي أَنْ أَوْقِفَهُ وَسَطَ الْكُمَاةِ، وَلَا يَشْقَى بِي الْجَارُ^(٤١)
- * وَأَنِّي لَا يَخَافُ الْغَدْرَ جَارِي وَلَا يَخْشَى غَوَائِلِي الْغَرِيبُ^(٤٢)
- * وَلَا يَغْدُو عَلَى الْجَارِ يَشْكُو أَذَاتِي مَا بَقِيَتْ وَلَا اغْتِيَابِي^(٤٣)

وكانت ثانية أربع خصال من فضائل الأخلاق تباهى بتوفرها فيه الفارس العربي الشاعر المخضرم مالك بن حريم الهمداني هي كفه لسانه عن جارته، فتظل مكرمة مصونة من الشتم وهجر القول إذا آذى غيره جاره بلسانه البذيء :

وثانية ألا تُقْدَع جَارَتِي إذا كان جَارُ الْقَوْمِ فِيهِمْ مُقْدَعًا^(٤٤)

أما عمرو بن الإطنابة الخزرجي فتباهى بأنه من قوم يدفعون عن جاراتهم الفحش وسوء القول فلا يستطيع إسماعهن الهُجر، وبأنهم إن نزل بهم ضيف هبوا لإعداد القرى له :

الْمَانِعِينَ مِنَ الْخَنَا جَارَاتِهِمْ وَالْحَاشِدِينَ عَلَى طَعَامِ النَّازِلِ^(٤٥)

ومن المفاخر التي تَمَجَّد بها حسان أنه وَقَوْمُهُ يرون حقَّ الجوار أمانةً وعهداً لا يخيسون به، فلا أحد منهم يؤذي جاره أو يتعمد إلحاق أي ضرر به . وشي قيس بن عاصم المنقري على قومٍ بأنهم، لكرم سجاياهم، يغفلون عما عسى أن يكون بجارهم من عيب، وفي الوقت عينه، لا يغفلون عن إحسان الجوار له والقيام

(٤١) ديوان عنترة بن شداد، تحقيق محمد سعيد مولوي، (دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م)، ٣٢٢.

(٤٢) الحماسة الشجرية، ٢٢٩/١.

(٤٣) كتاب الوحشيات، ٣٧٧.

(٤٤) كتاب الاختيارين، صنعة الأخفش الأصغر، تحقيق فخر الدين قباوة، (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)، ٢٣٤.

(٤٥) الحماسة الشجرية، ٢١٣/١، وشرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م)، ٤/١٦٣٢.

بحقه . ويمدح قيس بن الحُدَاديَّة قوماً بأنَّ جَارَهُمْ آمِنٌ مطمئنٌ طَوَالَ حياته لا يخشى
أن تصل إليه منهم عقاربٌ شرٌّ، ولا أن يتعرض لِضَيْمٍ أو سَلْبٍ مَالٍ :

* فما أَحَدٌ مِنَّا بِمُهْدٍ لِحَجارِهِ أَذَاةً، ولا مُزِرٌ بِهِ، وَهُوَ عَامِدٌ
لأنَّا نَرَى حَقَّ الجِوارِ أَمَانَةً وَيَحْفَظُهُ مِنَّا كَرِيمُ المَعَاهِدِ^(٤٦)
* لا يَفْطَنُونَ لِعَيْبِ جَارِهِمْ وَهُمْ لِحُسْنِ جِوارِهِ فُطُنٌ^(٤٧)
* فَجَارُهُمْ آمِنٌ دَهْرُهُ بِهِمْ أن يَضَامَ وأن يُغْتَصَبَ^(٤٨)

وامتدح كل من الأعشى وجريِّر امرأةً بحسن الجوار. فممدوحةُ الأعشى لا
تتجسس على جيرانها فتسرق عليهم السمع أو البصر، وامرأة جريِّر، وهي زَوْجُهُ
أُمُّ ابْنِهِ حَزْرَةَ، لم يكن يخشى جيرانها أذاها :

* لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الجِيرانُ طَلَعَتَهَا ولا تَرَاهَا لِسِرِّ الجَارِ تَخْتَلُ^(٤٩)
* كانت مُكْرِمَةً العَشِيرِ ولم يَكُنْ يَخْشَى غَوَائِلَ أُمِّ حَزْرَةَ جَارُ^(٥٠)

كما ذمَّ الشعراء من تصل عقاربُه إلى جيرانه، فذمَّ مساور بن هند العبسيُّ
(مخضرم) قوماً يقتلهم ابْنُ أُخْتٍ لَهُمْ وجاراً لَهُمْ، لخفة أحلامهم وسفههم، ولأن
ذلك أمانة على ذنوبِ هلاكهم، فجعل رابطة الجوار كرابطة القربى قُوَّةً.

وأخذ حريث بن عَناب الطائي (إسلامي) على من هجاهم إساءةً تَهْمٌ إلى جارهم

(٤٦) ديوان حسان بن ثابت، ٥٠/١.

(٤٧) المستقصى في أمثال العرب، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (حيدر آباد: دار المعارف العثمانية،

١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م)، ٧١/١؛ وشرح الحماسة، ١٥٨٤/٤ (لحفظ جواره)؛ ومعجم الشعراء، لمحمد بن

عمران المرزباني، تحقيق عبدالستار فراج، (القاهرة: ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م)، ٢٠ (لحسن حديثه).

(٤٨) شعر قيس بن الحداية، صنعة حاتم صالح الضامن، المورد (م)، ٨، ع ٤، بغداد: وزارة الثقافة والفنون

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ٢٠٦.

(٤٩) ديوان الأعشى، ٥٥.

(٥٠) ديوان جريِّر، ٨٦٣/٢.

وَشَتَّمَهُ وَدَعَوْتُهُ بِمَا لَيْسَ يَقْبَلُ مِنَ الْقَابِ، وَأَنْ ذَلِكَ الْجَارُ لَا يَتَوَقَّعُ مِنْهُمْ خَيْرًا.

وَأَمَّا كَثِيرُ فَاتِهِمُ الْبَكْرِيِّينَ بِأَنَّهُمْ ذَنَابٌ فِي ثِيَابِ إِنْسٍ إِذَا صَادَفُوا مِنْ جَارِهِمْ أَوْ صَدِيقِهِمْ غِرَّةً :

وَعَمِيرُ الْكُمَيْتِ مَهْجُوبٌ بِأَنَّهُمْ يَسْرِقُونَ مِنْ مَالِ جَارِهِمْ كَمَا يَفْعَلُ الْعَبْدُ اللَّثِيمُ الَّذِي لَا تَزَعُّهُ عَنْ ذَلِكَ مَرُوءَةٌ أَوْ مَقَامٌ اجْتِمَاعِي رَفِيعٌ.

وَمِمَّا عَمَّرَ بِهِ جَرِيرُ الْمَرَّارِ بْنِ مَنقَذِ الْبُرْجُمِيِّ لَمَّا هَجَاهُ مَا رَوَى مِنْ أَنَّ قَوْمَهُ سَرَقُوا نَعْجَةً جَارٍ لَهُمْ وَنَحَرُوهَا وَأَكَلُوهَا، وَدَفَنُوا مَا بَقِيَ مِنْهَا كَالْأُظْلَافِ وَالْجِلْدِ وَالْقُرُونِ فِي الرَّمْلِ :

- | | |
|--|--|
| * قَتَلُوا ابْنَ أُخْتِهِمْ وَجَارَ بُيُوتِهِمْ | مِنْ حَيْنِهِمْ وَسَفَاهَةِ الْأَلْبَابِ ^(٥١) |
| * لَا يَرْتَجِي الْجَارُ خَيْرًا فِي بُيُوتِهِمْ | وَلَا مَحَالَةً مِنْ شَتْمٍ وَالْقَابِ ^(٥٢) |
| * هُوَ التَّيْسُ لُؤْمًا، وَهُوَ إِنْ رَأَى غَفْلَةً | مِنْ الْجَارِ، أَوْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ ذَيْبٌ ^(٥٣) |
| * زُرُقُ الْعَيُونِ إِذَا جَاوَزَتْهُمْ سَرَقُوا | مَا يَسْرِقُ الْعَبْدُ، أَوْ نَابَأَتْهُمْ كَذَبًا ^(٥٤) |
| * بَنِي مُنْقِذٍ مَا شَأْنُ مَنَحَةِ جَارِكُمْ | تُدْفَنُ أَظْلَافُ لَهَا وَقُرُونُ؟ ^(٥٥) |

وَبَلَغَ مَهْجُوءُ شَاعِرٍ يَدْعِي عَبْدَ اللَّهِ الْمَهْلَبِيَّ مِنَ اللَّوْمِ مَبْلَغَ أَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ جَارَهُمْ يَقْبِسُ مِنْ نَارِهِمْ شَهَابًا يَشْعَلُ بِهِ نَارَهُ، وَأَنَّ يَدَهُمْ دَائِمًا مُمْتَدَّةٌ فِي إِيْذَانِهِ لَا تُكْفُ عَنْ مَسِّ حُرْمَتِهِ :

لَا يَقْبِسُ الْجَارُ مِنْهُمْ فَضْلَ نَارِهِمْ وَلَا تُكْفُ يَدٌ عَنْ حُرْمَةِ الْجَارِ^(٥٦)

(٥١) شرح الحماسة، ٤٣١/١.

(٥٢) نفسه، ١٤٨٢/٣.

(٥٣) ديوان كثير عزة، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار الثقافة، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م)، ٣٨٧.

(٥٤) اللسان (ن ب أ).

(٥٥) ديوان جرير، ٥٦٣/٢.

(٥٦) شرح الحماسة، ١٥٢١/٣.

وعاب مَزْرَدُ بْنُ ضَرَارٍ رجلاً يُدْعَى ابْنُ ثَوْبٍ بكثرة إيدائه لجاراته، فوصفهن بأنهن لكثرة ما يتلقَّين من مكروهٍ منه يَتَنَ (بَوَاشِمَ) من الشرِّ كما يَتَشَمُّ أكل الطعام الكثير، وغلا في ذلك فوصفه بأنه (يشويهن) بأذاه شيئاً :

وَأَصْبَحَ جَارَاتُ ابْنِ ثَوْبٍ بَوَاشِمًا من الشرِّ يَشْوِيهِنَّ شَيْءٌ الْوَقَائِدِ^(٥٧)

جـ - العِفَّةُ عن الجَارَةِ^(٥٨) :

إن رعاية ذمام الجار، والمحافظة على حرماته - كما بدا مما مضى - من القيم الوثقى، وإنَّ العِفَّةَ عن (الجارة) و (امرأة الجار) لأَوْثَقُ عرى تلك الرعاية والمحافظة، فهي أكثر الشؤون ذات الصلة بالجار دوراناً على ألسن الشعراء. ويتنوع الحديث عنها بين دعوة إليها، وفخر بالاتصاف بها، ومدح لمن تتوفر فيه، وذمٌّ لمن تنقصه.

أ - الدعوة إلى العِفَّة عنها :

لما حضرت ليبدأ الوفاة قال قصيدة خاطب بها ابناً لأخيه، إذ لم يكن له ولد، ضمَّنها وَصَاتَيْنِ كانت أولاهما دعوته إلى العِفَّة عن جاراته وإكرامهن :

وَاعْفِفْ عَنِ الْجَارَاتِ وَأَمْ نَحْهُنَّ مَيْسِرَكَ السَّمِينَا^(٥٩)

ولما مدح الأعشى الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر أن من تعاليمه تحريم إتيان الجارات. ومن الجليّ أن تخصيصة الجارات إنما هو برهان على تمييزهن عن سواهن عند العرب بشدة الصُّون، وإلا فالتحريم عامٌ لما سوى الأزواج وما ملكت الأيمان من النساء، كما هو معلوم :

(٥٧) المفضليات، ٧٧؛ وشرحها، الموضع نفسه.

(٥٨) على أن العفة عن الجارة من كف الأذى عن الجار فقد خصصناها بفقرة منفردة لخطورها ولإفراد الشعراء إياها بالحديث كثيراً.

(٥٩) شرح ديوانه، ٣٢٤. مَيْسِرُكَ: جزورك التي يتقاسمها المشتركون في الميسر.

أَجِدْكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ . . . نَبِيِّ الْإِلَهِ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا

وَلَا تَقْرَبَنَّ جَارَةً إِنْ سِرَّهَا عَلَيْكَ حَرَامٌ فَانْكِحَنَّ أَوْ تَأْبُدَا^(٦٠)

وكانت الدعوة إلى العفة عن الجارية وتجنب الخلوبها ضمن بضع وصايا ضممتها أبو صخر الهذلي إحدى قصائده، حيث حذر من أن تشير إلى الموصى والجارية لإصبع مُشيرٍ بريئة. ودعاه إلى إكرامها مع تجنب الخلوة بها :

وَتَوَقَّ إِنْ حَلَّتْ بِقُرْبِكَ جَارَةٌ كَفَّ الْمُشِيرَ إِلَيْكُمَا بَأْنَامِلٍ
نَلَّهَا بِخَيْرٍ وَاعْتَزَلْ خَلَوَاتِهَا وَاحْذَرْ مُجَاهَرَةَ الْكُذُوبِ الْمَاحِلِ^(٦١)

ب : الفخر بالعفة عنها :

في سياق الفخر بهذه الفضيلة يَعْدِلُ أَوْسُ بْنُ حَجَرَ بَيْنَ تَحْرِيمِ جَارَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَتَحْرِيمِ الْعَذْرِ عَلَيْهَا، فيؤكد أنه آلى على نفسه أَلِيَّةً قَدِيمَةً لَا يُمْكِنُ الْحَنْثُ بِهَا إِلَّا بِرِتْكَبٍ عَذْرًا وَلَا يَسْتَحِلُّ مِنْ جَارَةٍ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ :

عَلَيَّ أَلِيَّةٌ عَتَقْتُ قَدِيمًا فَلَيْسَ لَهَا، وَإِنْ طَلَبْتَ، مَرَامُ
بَأْنِ الْعَذْرِ، قَدْ عَلِمْتُ مَعَدُّ، عَلَيَّ وَجَارَتِي مَنِي حَرَامُ^(٦٢)

وجارُ طَرْفَةٍ وَقَوْمِهِ يَكُونُ ثَاوِيًا لَدَيْهِمْ هُوَ وَزَوْجُهُ بِخَيْرٍ لَا يَمَسُّهُمْ سُوءٌ، كَمَا أَنَّ جَارَاتِهِمْ مُحَرَّمَاتٌ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً، لَا يَجْرَوُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَسْتَبِيحَ مِنْهُنَّ غَيْرَ مُبَاحٍ :

(٦٠) ديوانه، ١٣٧. سرها: السُّرُ: الْفَرْجُ وَالزَّيْنُ. أَنْكِحَنَّ: تَزَوَّجَنَّ. تَأْبُدُ: تَعْفُفُ.

(٦١) شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن السكري، تحقيق عبدالستار فراج، (القاهرة: مكتبة العروبة، د. ت)، ٩٣٠/٢. الماحل: الماكر والساعي بالشر. ينظر مثلاً اللسان (م ح ل).

(٦٢) ديوانه، ١١٥.

تَرَى جَارَنَا فِينَا بِخَيْرٍ وَعَرَسَهُ وَجَارَاتِنَا بَسْلاً عَلَى النَّاسِ مَحْرَمًا^(٦٣)

ومن أكثر ما قيل في الفخر بالعفة عن الجارة شيوعاً وجرياناً مجرى الأمثال بيتٌ لعنترة قال فيه إنه يَغْضُ طرفه حين تبرز جارتُه إلى أن يسترها بيتها :

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَاوَاهَا^(٦٤)

ويعتزُّ زهير بعفته عن جارته . . فجاره لا يخشى أن يُشيعَ زهير نظره من امرأته لا جهاراً ولا في السرِّ :

وَجَارِي لَيْسَ يَخْشَى أَنْ أَرْنِي حَلِيلَتَهُ بِسِرٍّ أَوْ عِلَانٍ^(٦٥)

وَبَرْدَعُ بْنُ عَدِيٍّ ، وهو شاعر جاهلي ، فخور بأنه يحفظ جاره في أهله فلا يقتنص غراتهم :

وَأَحْفَظُ جَارِي أَنْ أُخَاتِلَ عَرَسَهُ وَمَوْلَايَ بِالنُّكْرَاءِ لَا أُتَطَّلِعُ^(٦٦)

وينفي الطفيل الغنوي عن نفسه مخالفة جاره أو أحد ذوي قرباه إلى حليلته . ويدعو على نفسه بالدهاية الدهياء إن اقترف هذا العمل المشين تأكيداً لنفوره منه واستهجانه له :

وَلَا أُخَالِفُ جَارِي فِي ظَعِينَتِهِ وَلَا ابْنَ عَمِّي ، غَالَتْنِي إِذَا غَوْلُ^(٦٧)

وليس من خلق تميم بن مقبل التسلل إلى جاراته ليلاً بحيث يقبع في انتظار

(٦٣) ديوانه، شرح الأعلام الشُّتُمري، تحقيق دُرَيَّة الخطيب ولطفي الصَّقَّال، (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)، ١٩٤. بَسْل: حرام.

(٦٤) ديوانه، ٣٠٨.

(٦٥) شرح ديوانه، ٣٥٦. أَرْنِي حليلته: أديم النظر إليها.

(٦٦) الأغاني، ٢٣٦/١٦. النُّكْرَاء: المنكر.

(٦٧) شعره، تحقيق سالم كرنكو، الموضع نفسه، وشعره؛ تحقيق محمد عبد القادر أحمد، ٥٨؛ والحماسة الشجرية، ٧٧/١.

الخلوة بهن كما تقبع الخنفساء الصغيرة التي ضلّت عن جحرها :
ولا أَطْرُقَ الْجَارَاتِ بِاللَّيْلِ قَابِعاً قُبُوعَ الْقَرْنَبِيِّ أَخْطَاطَهُ مَحَافِرُهُ^(٦٨)

وأما حاتم ذلك الجواد الأشهر فلا غرابة أن نجد العفة عن الجارة من أبرز ما كرر التباهي به من مفاخر. وقد عبر عن ذلك بأساليب متنوعة فمرة نفي أن يختلف إلى بيت جارته ليلاً ليسلم عليها ويحدثها، وأخرى نفي زيارة الجارات ليلاً إلا من أجل شيء واحد هو تقديم طعام إليهن، وثالثة قال إن جارته المغيّب^(٦٩) لن تشكّيه إلا لأمر واحد أيضاً هو عدم زيارته لها وزوجها غائب. ولنا أن ندعو هذا «تأكيد البراءة من الذنب بما يشبه الإقرار به» قياساً على ما سماه البلاغيون «تأكيد المدح بما يشبه الذم» - ويؤكد أنه سير بها، فيعود إليها حليلها ولم يسدل ستر عليه وعليها معاً، ورابعة يقسم أنه لن يسير أبداً نحو جارته لأمر يمس العفاف، وخامسة استنكر أقوى استنكار أن يصدر عنه من هذا شيء، ودعا على نفسه بالافتضاح إن سعى خاتلاً زوج جاره في ظلام الليل، وتساءل تساؤل الأبى المستبشع أفضح جارتي، وأخون زوجها الذي أئتمني عليها لجواري لها؟ حاشا أن تحدثني نفسي بشيء من ذلك ما دمت حياً!

وافتخر مرة سادسة بأنه غضيض الطرف عن جاراته وجارات قومه وأنه كأنه أصم لا يسمع ما يتحدثن به، ولذلك لا يضير جاره ألا يكون لبيته ستر، لأن عفته وغضه طرفه ستر كافٍ.

كما قال مرة أخرى في بيتين نسباً له كما نسباً لمسكين الدارمي إنه ينظر نظراً ضعيفاً إذا برزت جارته من بيتها إلى أن تعود إليه، لئلا يرى منها ما لا ينبغي له أن يراه :

(٦٨) ديوانه، ٢٥٤. القرني: دويبة كالخنفساء.

(٦٩) المغيّب: التي غاب عنها زوجها.

* وما أنا بالماشي إلى بيتِ جَارَتِي
 * لا نطُرقُ الجاراتِ مِنْ بَعْدِ هَجْعَةٍ
 * وما تَشْتَكِينِي جَارَتِي غَيْرَ أَنِّي
 * سَيَلُّغُهَا خيري وَيَرْجِعُ بَعْلُهَا
 * فَأَقْسَمْتُ لَا أَمْشِي عَلَى سِرِّ جَارَتِي
 * إِذَا مَا بَتُّ أَخْتَلُ عِرْسَ جَارِي
 * أَفْضَحُ جَارَتِي وَأُخَوِّنُ جَارِي
 * وما ضُرَّ جَارًا يَا بَنَّةَ الْقَوْمِ فَأَعْلِمِي
 * بَعِينِي عَنْ جَارَاتِ قَوْمِي غَفْلَةً
 * مَا ضُرَّ جَارًا لِي أَجَاوِرُهُ
 * أَغْشَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ

طُرُوقاً أَحْيَيْهَا كَأَخَرِ جَانِبِ^(٧٠)
 من اللَّيْلِ إِلَّا بِالْهَدْيَةِ تُحْمَلُ^(٧١)
 إِذَا غَابَ عَنْهَا بَعْلُهَا لَا أُوْرُهَا
 إِلَيْهَا وَلَمْ تُقْصِرْ عَلَيَّ سُورُهَا^(٧٢)
 يَدَ الدَّهْرِ مَا دَامَ الْحَمَامُ يَغْرُدُ^(٧٣)
 لِيُخْفِيَنِي الظَّلَامُ، فَلَا خَفِيْتُ !
 مَعَاذَ اللَّهِ أَفْعَلُ مَا حَيْتُ^(٧٤)
 يُجَاوِرُنِي أَلَّا يَكُونَ لَهُ سِتْرُ
 وَفِي السَّمْعِ مِنِّي عَنْ أَحَادِيثِهَا وَقُرُ^(٧٥)
 أَلَّا يَكُونَ لِبَيْتِهِ سِتْرُ
 حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْخِذْرُ^(٧٦)

واستخدم شاعر يدعى بشار المجاشعي، أو شاعر يدعى هلال بن خثعم، صوراً
 تعبيرية عدة للتدليل على تجنبه جَارَتَهُ أثناء غياب بعلها : فهو ليس (زوراً) لها،
 و(لا تَأْنَسُ إِلَيْهِ كِلَابُهَا) لكثرة تردده إليها، ولا علم له بأحاديث أسرارها، ولا على
 أي نحو نُسِجَتْ مَلَابِسُهَا :

(٧٠) ديوان شعره، ٢٠٤.

(٧١) نفسه، ٢٣٢.

(٧٢) نفسه، ٢٤٧.

(٧٣) نفسه، ٢٦٣.

(٧٤) نفسه، ٢٢٣.

(٧٥) خزائن الأدب، لمبدع القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م)، ٢١٣/٤؛ والأغاني ٣٨٦/١٧، وآخره فيه (من أحاديثهم وقر). وليس البيتان في ديوانه مع وجود القصيدة التي وردا ضمنها في المصدرين السابقين.

(٧٦) خزائن الأدب، ٧٢/٣. وعن نسبتهما لمسكين الدارمي (ربيعه بن يحيى)، ينظر مثلاً أمالي المرتضي، الموضع نفسه؛ ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، (القاهرة: دارالمأمون، د. ت)، ١٣٢/١١؛ وديوانه، الموضع نفسه، باختلاف طفيف جداً في بعضها.

وَإِنِّي لَعَفُفٌ عَنْ زِيَارَةِ جَارَتِي وَإِنِّي لَمَشْنُوءٌ إِلَيَّ اغْتِيَابُهَا
إِذَا غَابَ عَنْهَا بَعْلُهَا لَمْ أَكُنْ لَهَا زُؤُورًا، وَلَمْ تَأْنَسْ إِلَيَّ كِلَابُهَا
وَلَمْ أَكْ طَلَابًا أَحَادِيثَ سِرِّهَا وَلَا عَالِمًا مِنْ أَيِّ حَوْكِ ثِيَابِهَا^(٧٧)

وكما أن كلاب جارٍ بشارٍ المجاشعي أو هلال بن خثعم لا تأنس إليه لِقَلَّةِ الْفَتْهَا
لَهُ لِتَجَنُّبِهِ دَارَ جَارَتِهِ، فَكَذَلِكَ كِلَابُ جَارِ الْعَجِيرِ السَّلُولِيِّ، فَإِنْ جَارُهُ يَرْتَحِلُ قَبْلَ أَنْ
تَأْلَفَهُ، لِلْسَبَبِ عَيْنِهِ، وَجَارَتُهُ تَظْعَنُ دُونَ أَنْ تَكُونَ قَدْ أُرْخِيَتْ عَلَيْهَا سِتُورُ حَذَارٍ
عَيْنِهِ، فَهِيَ آمَنَةٌ تَمَامَ الْأَمْنِ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا وَهِيَ سَافِرَةٌ، وَتِلْكَ سَنَةٌ سَارَ عَلَيْهَا هُوَ
وَأَبَاؤُهُ وَتَوَارِثُوهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ :

يَبِينُ الْجَارُ حِينَ يَبِينُ عَنِّي وَلَمْ تَأْنَسْ إِلَيَّ كِلَابُ جَارِي
وَتَظْعَنُ جَارَتِي مِنْ جَنْبِ بَيْتِي وَلَمْ تُسْتَرْ بِسِتْرِ مِنْ حَذَارِي
وَتَأْمَنُ أَنْ أُطَالِعَ حِينَ آتِي عَلَيْهَا وَهِيَ وَاضِعَةُ الْخِمَارِ
كَذَلِكَ هَذِي آبَائِي قَدِيمًا تَوَارَثُهُ النَّجَارُ عَنِ النَّجَارِ^(٧٨)

ونختم حديث الفخر بهذه الخصلة الحميدة بيتين بديعين لعقيل بن علفة
المرّي قال فيهما إنه ما كان ليسأل جاراته عن رجالهنّ أغائبون هم أم حُضِرَ ليزورهنّ
إن كانوا غائبين . . ولن يصدر من بيت جاره مرتوباً مما أراد كما يصدر الحمار عن
المورد، وقد استخدم صورة الحمار الصادر من منهل الماء بعد أن عبّ منه حتى
ارتوى، لتشجيع زيارة الجارة زيارة غير عفيفة :

وَلَسْتُ بِسَائِلٍ جَارَاتِ بَيْتِي : أَغْيَابَ رَجَالِكَ أَمْ شُهُودَ ؟
وَلَسْتُ بِصَادِرٍ عَنْ بَيْتِ جَارِي صَدُورِ الْعَيْرِ غَمْرِهِ الْوُرُودِ^(٧٩)

(٧٧) الحماسة الشجرية، ٤٦٨/١؛ واللسان (زور)؛ وأمالى المرتضي، ٣٧٩/١، ونسبت في المصدرين
الأخيرين لهلال بن خثعم.

(٧٨) الأغاني، ٧٥/١٣.

(٧٩) شرح الحماسة، ١٤٠١/١ والتي تليها.

والشعر القديم المفتخر بالعفة عن الجارة كثير نكتفي بالنظر في هذا القدر منه^(٨٠)

ج - المدح بالعفة عن الجارة :

وكما افتخر الشعر القديم بالتعفف عن الجارات، فقد كانت هذه الصفة موضع مديح فيه موفور. فجارات بني ضبة، كما قال زهير بن مسعود، محرمات عليهم لا ينالهن من جانبهم فحش أو أذى^(٨١). وبُرَيْدُ الرِّياحِيّ اليربوعي تحلّ جارته قربه وترتحل دون أن تهتك لها حرمة، فهو يفي بحق الجار نحو جاره :

إذا جارة حلت لديه وفي بها فآبت ولم يُهتَك لجارته ستر^(٨٢)
ويمدح الأعشى بني حنيفة فيقرن وصفهم بالكرم والسخاء (خضارم) في مختلف أحوالهم (غائبين أو شاهدين) بعفتهم عن جاراتهم فلن تقع عليهم عين يقتربون أمورا مريبة معهن :

هم الخضارم إن غابوا وإن شهدوا ولا يُرون إلى جاراتهم خُنعا^(٨٣)
وينو قُرَيْع الملقبون ببني أنف الناقة يمدحهم الحطيئة بأن جارتهم مطهرة لا

(٨٠) ومن طرق هذا المعنى مفتخرا غير من ذكرنا: النابغة الجعدي (شعره، ٤ و ٥)؛ وقيس بن الخطيم (الأشياء والنظائر ٢٥/١؛ وديوانه، ١٠٧)؛ ويزيد بن الصامت الشَّيْ (الاختيارين ١٦٣)؛ وحُجْر بن حَيَّة (شرح الحماسة، ٤/١٦٦٦٢)؛ والعيار بن شَيْم (موسوعة الشعر ٤/٤١٦)؛ والكميت (شعره، ١/٨٩، و ١٣/٢)؛ وجريز (ديوانه ١/٢٣٣)؛ وكثير عزة (ديوانه، ٣٨٠)؛ والأعرج الطائي واسمه عدي بن عمرو بن سويد (شعر طيء وأخبارها، ٢/٥١٧)؛ وكثير بن عبدالله الدارمي الملقب بابن الغريزة، وهي أمه، وهو مخضرم عاش حتى عصر الحجاج (معجم الشعراء، ٢٤١)؛ ومسكين الدارمي (الأشياء والنظائر ١/٦٦)؛ وأبو جلدة اليشكري (الأغاني ١١/٣١٤)، والأحوص (شعره، ٨٣)؛ وحفيظ العبسي (جمهرة نسب قریش، الموضوع نفسه).

(٨١) في قوله:

قَوْلُهُمْ بَرٌّ وَجَارَاتُهُمْ
جَجَرٌ فَلَا هُجْرٌ وَلَا حُوبٌ

(٨٢) للأيود الرياحي، أخيه، في رثائه. ينظر الأغاني ١٣/١٣٨؛ وذيل الأمالي، ٤.

(٨٣) ديوانه، ١٠٧، الخضارم: الكرام الأسخياء. خُنعا: ج: خانع من (الخُنعة) وهي الرِّبِّية. ينظر مثلاً الصحاح ١٢٠٦/٣.

تَمَسَّ (عَفَّ جَبِيْهَا)، وهي تذكرهم ذكراً حسناً لحسن معاملتهم لها، كما يمدح بنى كليب بن يربوع بعفتهم عما يحرم عليهم من جارتهم، وبإكرامهم لجارهم وتقديمه قبل غيره على الطعام، وحمایتهم للمستجير بهم فيكون كأنه في ذروة جبل عال فلا يوصل إليه :

* لعمرك إن جارة آل لاي لعفَّ جبيها حسن نشاما^(٨٤)
 * ويحرم سرُّ جارتهم عليهم وَيَأْكُلُ جَارُهُمْ أَنْفَ الْقِصَاعِ
 وجارهم إذا ما حلَّ فيهم على أَكْنافِ رَابِيَةٍ يَفَاعِ^(٨٥)

وجارة بني زياد العبسين - في مديح - قاله حاتم فيهم - حَصَانٌ عَفِيفَةٌ لَا تُقَذَّفُ، ولو بغير حق، بأمر شائن لبعدها عن ذلك وبعدهم عما يشينها. وهم يكرمونها فلا تعاني جوعاً في الشتاء حين تَمَسُّ الناس الحاجة إلى القوت أكثر من أي وقت آخر :
 وجارَتُهُمْ حَصَانٌ مَا تُزْنَى وَطَاعِمَةٌ الشِّتَاءِ فَمَا تَجُوعُ^(٨٦)
 وصخر بن عمرو السلمي تعزو إليه أخته الخنساء، ضمن ما أمطرته من المحامد وفضائل الأخلاق، أنه لا تقع عليه عين وهو بفناء جارته حين تخلو دارها من ربها، وليس يتسلل في جوف الليل إلى جاراته :

* لم تَرَهُ جَارَةً يَمْشِي بِسَاحَتِهَا لَرَبِيَّةٍ حِينَ يُخْلِي بَيْتَهُ الْجَارُ^(٨٧)
 * وَلَا يَقُومُ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَشْتُمُهُ وَلَا يَدْبُ إِلَى الْجَارَاتِ تَخْوِيداً^(٨٨)

(٨٤) ديوانه، ١١٩.

(٨٥) نفسه، ٦٢. أَنْفُ الْقِصَاعِ: أي القصاع الأنف، من إضافة الصفة إلى موصوفها، أي التي لم يؤكل منها من قبل، كالروض الأنف وهو الذي لم يَرُخ. يَفَاعٍ: عالية، مرتفعة.

(٨٦) ديوان شعره، ١٤٨.

(٨٧) ديوانها، (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٤٩.

(٨٨) نفسه، ٤٠. تخويداً: التخويد: السير السريع.

ج: د - الهجاء بعدم العفة عن الجارة :

لأن هتك عرض الجارة عمل شديد الخسة فإنه حتى عرب ما قبل الإسلام، كما تجلّي فيما سلف، على ما هم فيه من خواء روحي، وفراغ ديني ليس يزعمهم عن المنكر، ينفرون منه ويستشنعونه بفطرتهم البشرية السليمة، وخلقهم العربي النقي، ويُعدّون عدم الوقوع فيه من خير المفاخر.

ولذلك أيضاً عدّ في الإسلام من أكبر الذنوب عند الله سبحانه بعد الشرك وقتل الولد تفادياً لإطعامه، فقد ورد أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعوا لله نداً وهو خلقك» قال: ثم أيُّ؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قال: ثم أيُّ؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك».. الحديث^(٨٩) ولهذا كان هذا العمل من المخازي التي يسرع العائبون والهاجون من الشعراء وغيرهم إلى تعيير مذموميههم ومهجوريهم به إن صدقاً وإن كذباً. وقد عرض رجلٌ بآخر ضمن حوارٍ بينهما بأنه «يتسور على جاراته»^(٩٠).

وأما الذمُّ بعدم العفة عن الجارة في الشعر القديم، وهو ما نحن بصدده هنا، فليس بقليل. ومنه هجاء أوس بن حَجَرَ بنِي سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ ضَبْيَةَ وقوماً غيرهم بأنهم يَمْضُونَ حينَ يَجُنُّ عليهم الليل، إلى بيوت جاراتهم لا قِترافَ ما يُخزِي من الأعمال :

طُلُسُ الْعِشَاءِ إِذَا مَا جَنَّ لَيْلُهُمْ بِالْمُنْدِيَّاتِ إِلَى جَارَاتِهِمْ دُلْفُ^(٩١)

(٨٩) رواه البخاري في صحيحه، ٢٥١٧/٦.

(٩٠) ينظر الأغاني، ٢٦٠/١٣.

(٩١) ديوانه، ٧٥. طُلُسُ الْعِشَاءِ: جد أطلس. جاء في اللسان (ط ل س): «وفلان عليه ثوب أطلس، إذا رُمِيَ بقبیح، وأنشد أبو عبيد:

وَلَسْتُ بِأَطْلَسَ التَّوْبِينَ يُضِي حَلِيلَتُهُ، إِذَا هَذَا النَّيَامُ

لم يرد بحليلته امرأته، ولكنه أراد جازته التي تحالهُ في حِلَّتِهِ.

الْمُنْدِيَّاتِ: الْمُخْزِيَّاتِ. دُلْفُ: جد دالف: الماضي المتقدم، والماشي مقارباً خطوه.

وهجاء عقيل بن علفة الجارح لبني بدر الفزاريين، آل حذيفة بن بدر، بأن ثمة من بينهم دائماً رجلاً لثاماً يزورون جاريتهم زيارات مريبة بينما لا تلقى فيهم رجلاً كريماً واحداً، فأيديهم عن المكارم قصار، وخطاهم إلى المخازي سراع :

إذا جارة حلت على الهُجْم لم تجد كريماً، ولم تعدم لئيماً يزورها
أَتَقْصُرُ عن بَاعِ الْكِرَامِ أَكْفُهَا وَتَبْلُغَ أَنْصَافَ الْمَخَازِي أَيْوَرُهَا؟^(٩٢)

وفي أبيات لشاعر عاش في العصر الأموي يدعى أبا جلدة الشكري هجا فيها يزيد بن المهلب تعبيراً للمهجو بأنه يدب إلى منزل جاره حين يشتد الظلام ويختلط، وتغمض العيون، يتغني أن ينال من زوجه ما ليس له نيله، وأنه سريع إلى عمل ذلك متى وجد إليه حيلة، سواء رغبت فيه الجارة، أو لم تزد على أن نظرت إليه :

إذا اعتكرت ظلماء ليل ونومت عُيُونُ رِجَالٍ وَاسْتَلَذُّوا الْمَضَاجِعَا
سَمَا نَحْوَ جَارِ الْبَيْتِ يَسْتَامُ عَرْسَهُ يَزِيدُ دَبِيحاً لِلْمَعَانَا قَابِعَا
وإن أمكنته جارة البيت أو رنت إِلَيْهِ أَتَاهَا بَعْدَ ذَلِكَ طَائِعَا^(٩٣)

وعير مالك بن عميرة الجرسبي، وهو من شعراء خراسان ويعرف بابن موركة، وهي أمه، رجلاً يدعى سويد بن هوبر بأنه ينسل في الظلماء إلى امرأة جاره القريب من أجل أمر فادح قاصم للظهر لفظاعته :

يَدِبُ إذا ما اللَّيْلُ جَاءَ ابْنُ هَوْبِرٍ إِلَى جَارَةِ الْأَدْنَى بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ^(٩٤)

(٩٢) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: ؟ ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، ٧١٣/٢.

الهُجْم: لقب، فيما يبدو، لبني بدر المهجوين.

(٩٣) الأغاني، ٣٢٦/١١؛ وشعراء أمويين، ٣٤٨/٤.

(٩٤) معجم الشعراء، ٢٦٧.

ولا غرو، والحال هذا، ألا نَعْدَم استخداماً لهذه النقيصة الشائنة في شعر أبرز
فحول شعراء الهجاء في العصر الأموي، أعني الثلاثة الأشهرين الفرزدق
وصاحبيه، وهم لم يكادوا يغادرون فاحشة ولا نقيصة إلا رمى أحدهم بها أحد
صاحبيه. وقد عير بها جرير الفرزدق رامياً إياه بأن جاره المسلم لا يأمنه، فهو كالقرد
الذي لا يغفو طوال الليل، وأنه يتخذ من الجبال سلالاً يصعد بها إلى جاراته حين
يغطي الدجى الكون :

وما كان جَاراً للفرزدقِ مُسلمٍ ليأمنَ قرداً لئلهُ غيرُ نائمٍ
يُوصِّلُ حبله إذا جنَّ لئلهُ ليرقى إلى جاراته بالسَّلامِ^(٩٥)

وفي هذا ما يفي ويشفي للإجابة عن السؤال المثار في صدر هذا البحث حول
موقف العرب من الجار ومعاملته أهو موقف مشابه للموقف الإسلامي أم مختلف
عنه؟

(٩٥) ديوانه، ١٠٠١/٢.

المصادر والمراجع

- (*) صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، ٦، ٥، دمشق وبيروت، دار ابن كثير واليامة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- (*) الأشباه والنظائر، للخالدين محمد وسعيد ابني هائم، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٣٨٧هـ) - ١٩٥٨م.
- (*) الأغاني، لعلي بن الحسين الأصبهاني، القاهرة، دار الكتب، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- (*) أمالي المرتضي، علي بن الحسين العلوي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ١، القاهرة: شركة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٣هـ - [١٩٥٤م].
- (*) جمهرة نسب قریش وأخبارها، للزبير بن بكار، تحقيق محمود شاكر، القاهرة: مكتبة دار العروبة، ١٣٨١هـ - [١٩٦٢م].
- (*) الحماسة الشجرية، لهبة الله بن علي العلوي. تحقيق عبدالمعين الملوحي، وأسماء الحمصي، دمشق: وزارة الثقافة، [١٣٩٠هـ] / ١٩٧٠م.
- (*) خزانة الأدب لعبدالقادر البغدادى، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة: دار الكاتب العربي،
٣ : ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.
٤ : ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- (*) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، تحقيق وشرح م. محمد حسين، القاهرة: مكتبة الآداب، [١٣٧٠هـ] - ١٩٥٠م.
- (*) ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت دار صادر - دار بيروت، [١٣٨٠هـ] - ١٩٦٠م.
- (*) ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان أمين طه، القاهرة: دار المعارف، [١٣٨٩هـ] - ١٩٦٩م.
- (*) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات، بيروت : دار صادر، [١٣٩٠هـ] - ١٩٧٠م.
- (*) ديوان الحطيثة، تحقيق نعمان أمين طه، القاهرة: شركة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.

- (*) ديوان الخنساء، بيروت دار صادر، د. ت.
- (*) ديوان ذى الرمة، تحقيق عبدالقدوس أبي صالح، دمشق: مجمع اللغة العربية، ٢: ١٣٩٢هـ-١٩٧٣م.
- (*) ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره، تحقيق عادل سليمان جمال القاهرة: [١٣٩٥هـ]-١٩٧٥م.
- (*) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلام الشَّتمري، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
- (*) ديوان الطفيل الغنوى، تحقيق سالم كرنكو، لندن: لوزاك كُمني، [١٣٤٥هـ]-١٩٢٧م؛ وديوانه، تحقيق محمد عبدالقادر أحمد، بيروت، دار الكتاب الجديد، [١٣٨٨هـ]-١٩٦٨م.
- (*) ديوان عترة بن شداد، تحقيق محمد سعيد مولوي، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.
- (*) ديوان كثير عزة، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- (*) ديوان الفرزدق، بيروت: دار صادر / دار بيروت، ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.
- (*) ديوان مسكين الدارمي، تحقيق عبدالله الجبوري وخليل إبراهيم العطية، بغداد: ١٣٨٩هـ-١٩٧٠م.
- (*) ذيل الأمالي والنوادر، لإسماعيل بن القاسم القالي، تحقيق محمد عبدالجواد الأصمعي، القاهرة: دار الكتب، ١٣٤٤هـ-١٩٢٦م.
- (*) شرح أشعار الهذليين، صنعة الحسن بن الحسين السكري، تحقيق عبدالستار فراج، ٢، القاهرة: مكتبة دار العروبة، د. ت.
- (*) شرح ديوان الحماسة، لأحمد بن محمد المرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
- (*) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة ثعلب (أحمد بن يحيى)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٦٣هـ-١٩٤٤م.
- (*) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق إحسان عباس، (طبعة ثانية مصورة)، الكويت: وزارة الإعلام، [١٤٠٤هـ]-١٩٨٤م.
- (*) شرح المفضليات، ليحيى بن علي التبريزي، القاهرة: دار نهضة مصر، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
- (*) شعراء أمويون، دراسة وتحقيق نوري حمودي القيسي، بغداد: المجمع العلمي العراقي، القسم الثالث: ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م. القسم الرابع: ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

- (*) شعراء ثقيف في العصر الأموي، جمع وتحقيق عيضة بن عبد الغفور الصواط، الطائف: نادى الطائف الأدبي، د. ت.
- (*) شعر النابغة الجعدي، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- (*) الصحاح، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ٢، ٣، ٥، القاهرة: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- (*) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- (*) قصائد جاهلية نادرة، ليحيى الجبوري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- (*) كتاب الاختيارين، صنعة الأخفش الأصغر، تحقيق فخر الدين قباوة، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- (*) لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن علي بن منظور الإفريقي، إعداد يوسف خياط، بيروت: دار لسان العرب، د. ت.
- (*) المستقصى في أمثال العرب، لمحمود بن عمر الزمخشري، حيدر آباد: دار المعارف، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.
- (*) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ١١، القاهرة: دار المأمون، د. ت.
- (*) معجم الشعراء، لمحمد بن عمران المرزباني، تحقيق عبد الستار فراج، القاهرة: ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- (*) المفضليات، للمفضل بن محمد الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- (*) موسوعة الشعر، اختيار وشرح مطاع صفدي وإيليا حاوي، ٤، بيروت: [١٣٩٤هـ] - ١٩٧٤م.
- (*) الهجاء والهجاءون، لمحمد محمد حسين، القاهرة: مكتبة الآداب، [١٣٦٦هـ] - ١٩٤٧م.
- (*) الوحشيات، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق عبدالعزيز الميمني، القاهرة: دار المعارف، [١٣٩٠هـ] - ١٩٧٠م.

الدوريات

- (*) المورد، بغداد: وزارة الثقافة والفنون، م ٨، ع ٤، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.